وقفة مع الشاعر الإسلامي .. مصطفى بلقاسمي

الهجرة إلى زمن الرسالة

براهمي إبراهيم
- الجزائر -

الهجرة نشدان للحلم .. رحيل في الأفق البعيد بحثا عن الغد الجميل .. الهجرة إرهاصة ورغبة في إمكان مايجب أن يكون .. الهجرة تنبؤ بانهيار قوى الطغيان وسقوط لتاج كسرى أنوشروان في كل مكان وزمان .. الهجرة أيضاً دليل جحود ، وباطل يسود .. ونتاج كل هذا اغتراب روحي مفروض .. ولكن أي اغتراب ؟ هل هو سلبي يغذي الانطواء ويزيح المرء عن دوره الاجتماعي ويخرجه من دائرة الفعل ليجعل منه طاقة معطلة . أو هو إيجابي ينمي الروح الإيمانية ويزيد من عزم المؤمن ليجعل نفسه تتقد بالحماسة والثورة إيماناً بانبعاث عهد جديد تكون فيه المواجهة والمنازلة الكبرى كما حدث في يوم من الأيام مع بدر المنعطف بعد الهجرة من مكة إلى المدينة ، حيث انبثق عهد زمن الرسالة الذي تظل كل نفس مؤمنة وموحدة - تعيش وتحيا في ظل هذه الأجواء الضالة - تواقة إلى التواصل معه.

زمن الرسالة إذاً هو محطة للاستمداد والتعبئة - أمام التغيرات والانحرافات التي عرفتها حركية المجتمع الإسلامي - هذا الزمن بما حفل به من انتصارات ومباهج ، وبما ساد فيه من جيل رباني رص صفوفه والتفافه حول حامل الرسالة -عليه الصلاة والسلام - ومبلغها ، فاخترقت صورهم المشرقة المساحة المحدودة للمكان والزمان ، فصاروا مثلا يحتذى به بما جسدوه من تمثل لقيم الرسالة . نتلمس خيوط كل هذه المعاني الدافقة من المشاعر الإيمانية في قصيدة . ياراحلين مع الرسالة ، للشاعر الشاب مصطفى بلقاسمي الذي يقوده إحساسه المرهف وشعوره بمعاناة أمته وآمالها وآلامها إلى التطلع إلى هذا الزمن عساه يروي ظمأه ويحقق بهجرته وطنه الذي يرتضيه . يقول :

ياراحلين مع الضيا
ءمسافرين إلى البعيد
وهج الرسالة في دمي
مطر تماوج بالرعود
مطرتهاطل واستوى
لهبا تأجج في قصيدي
يا راحلين قوافلا
من عقبة لابن الوليد
هل قطرة أخرى تمو
ر بعالمي ؟ هل من مزيد ؟
أنا ظامىء وبخافقي
سكن الحنين إلى النشيد
أنا ظامىء ويراعتي
سقطت من القيظ الشديد
سكن الحنين إلى خوا
بي الضوء تسكب في وجودي

إن رحلة الشاعر إلى هذا الزمن وبهذه الصورة هي جزء من عملية التطهير النفسي الذي تطرحه المفهومية الإسلامية إزاء هذا الواقع الحضاري المتردي الذي تعرفه الأمة والعالم سواء ، فهي معادل موضوعي لغياب قيم الرسالة الخالدة ، وبذلك تنصهر هذه القيم في نفس الشاعر وكل مؤمن من جديد ، فتنضح بالمعاني الحية الحيوية التي افتقدت قيمتها وفعاليتها ، وأصبحت مجرد شعائر فقط ، يقول :

وأتيت مثقلة سماواتي وحبلى بالرعود
تتوالد الآمال ملحمة من البرق الجديد
اليوم يدرك كلنا معنى العبادة والسجود
معنى الصلاة تماوجت في الدم في شفة الوليد
فتمزقت حجب الظلام عن الجهاد عن الصمود
وتفتحت مقل الحيارى عن نواميس الوجود
اليوم ندري كلنا معنى الرسالة والوعود

لا شك أن اختراق المسافة إلى هذا الزمن مضمخ بالمعاني الروحية التي يزيدها الشوق والحنين متعة ، بل إن السفر ليغدو رحلة تشكل انتفاضة للروح أمام الشهوات وعباد البضائع ، ولا يصدها بعد ذلك الغرب التائه الضال بمادياته بل هي تمرحتما حول ما يقوي حاسته الوجدانية الثائرة ، وهذا ما تجسد أخيراً في مطولته ملحمة البيضاء (٢) وهي في هذه الأبيات أوضح وأقرب إلى المعنى الذي نريد ، يقول :

الضوء مرتحل يسافر في الربوع وفي النجود
سفر إلهي الرؤىء .. سفر إلهي العهود
سفر تمدد باسما وإلى البعيد إلى البعيد
لا الغرب يوقفه ولا عبد البضاعة والنهود
الضوء يصرخ في الشعاع وفي الربا ملء الوجود
لا للشفاه المثقلات رطانة لا للجحود

وأخيراً فإن هجرة الشاعر إلى هذا الزمن الذي يتحول إلى الوطن الذي تحقق فيه الذات الإسلامية المنشودة المعفرة بالعقيدة الخضراء ، يظل أمرا موافيا لكل ماهو مطلوب من كل مسلم في الأزمنة الخانقة أخذا بالمعنى التجاوزي للنص القرآني المتحدث عن هجرة إبرهيم - عليه السلام - قال تعالى (فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم) « ٣ »

ويقول الشاعر :

وهج الرسالة في وريدي
وطن يموج .. وفي قصيدي
وطن يجيء ...أظنه
ريان يكفر بالحدود
وطن تآزر بالعقيـ
ـدة وارتوى برؤى الجدود
فربوعه رمز السنا
وحدوده حلم الشهيد
وتهب فيه قوافل الأشبال
تعبث بالسدود
وتهب تنتفض المسا
فة بالكتاب وبالنشيد
إنا فتحنا في المدا
ئن في الصحارى في النجود

إن الوطن بهذا المفهوم هو صرخة أمام التمزق والتشتت وسمة القطرية التي يعرفها العالم الإسلامي اليوم ، كما أنه تجسيد للوطن الذي يرتضيه كل مسلم حيث تنزاح الحدود ويتحقق بذلك حلم الوحدة تحت راية العقيدة الخضراء .

ثم ماذا عن البعد الجمالي والفني لرحلة الشاعر وهجرته هذه ؟

الواقع أن بروز الرؤية بهذه الصورة التي يجد فيها كل مسلم ذاته تتحقق تعبر عن صفاء نظرة الشاعر وإدراكه للواقع الحضاري الذي تعرفه أمته ، وما هجرته إلا نتيجة حتمية لنظرة تأملية متبصرة مقارنة بين ماكان وبين ما هو كائن . هذا على مستوى الرؤية .

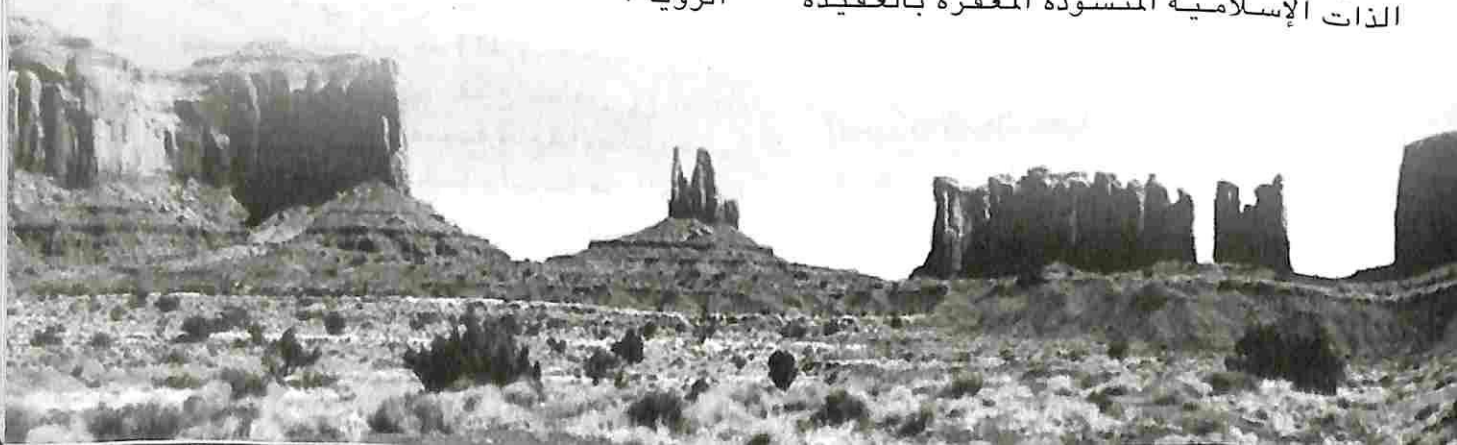

أما على المستوى الفني فإن القصيدة حبلى ، إذ يمكن عدها نموذجا لذلك النص الشعري الإسلامي الذي يتسم بتفرده في تشكيل بنية الخطاب المعتمد على التركيز والتكثيف للصورة في اللفظة المفردة . هذه الإمكانية الفنية التي حفلت بها القصيدة لا تعني بأي حال من الأحوال التماثل والمقاربة للقصيدة الإسلامية مع تجربة الشعر المعاصر أو السعي للتأصيل لها ، بل هي نابعة من رؤيتنا . وهي إحدى الخصائص الجمالية التي نراهن عليها في مشروع القصيدة الإسلامية . فهذه الإمكانية الفنية أصيلة في معرفتنا الإسلامية ، فالمتطلع والمتأمل للنص القرآني والحديث النبوي يجد ذلك في كثير من المواضع . وأذكر هنا لفظتين طالما توقفت عندهما متأملا ومعجبا بإمكانيتهما الدلالية التي زخرت بها ، فلفظة -انبجست -« ٤ » في القرآن الكريم . وفي الحديث النبوي نجد - تكلني« ٥ » وقد شاركني في هذا الإحساس أحد الأساتذة بقوله .. لم أجد على سعة اطلاعي من الألفاظ والمفردات ما يوازي هذه الكلمة - يقصد تكلني - وهذا من سحر ما أوتي به من لا ينطق عن الهوى ، وأحد أسرار معجزته الإلهية .

وإلى هذا الحد أعود للقول بأن القصيدة تحتل فيها لفظة « المطر » العصب الذي يحكم البناء الفني للقصيدة من البدء حتى المنتهى ، فالمطر كرمز للخصب والميلاد قد صاحبته في النص مظاهر الرعد والبرق و المور - التي توحي بقرب الانبعاث الذي يجسده الشاعر بـ (تمزق حجب الظلام ، تفتح مقل الحيارى ، فتح المدائن) وتشغل هذه الإمكانية الفنية قوة الصورة في اللفظة المفردة مساحة واسعة من النسيح الشعري للنص الشعري الذي اكتسب من الألفاظ طاقة وقدرة أكثر على التعبير (الضوء، السفر ، الرسالة ، الوطن) . واستخدام هذه الألفاظ التي تكتسي أبعادها تظل من متطلبات القصيدة الإسلامية بشرط حسن التوظيف والاستعمال له ، حتى تحقق كثافة النص وتبتعد عن التقريرية والوعظية . فقد حاول الشاعر استيفاء هذا المطلب بتمكنه بقدر كبير .

ختاما أقول: إن هذه الوقفة ما هي إلا مدخل بسيط إلى عالم شاعر يشكل ضمن كوكبة أخرى من الشعراء والمبدعين حالة شعرية تسعى إلى التأصيل والتأسيس لكلمة الرسالة ، والعودة بها إلى فضائها الإيماني .

---

١) قصيدة يا راحلين مع الرسالة ، مجلة الضاد / ع ٨،٧، قسنطينة ، أكتوبر ١٩٨٣م.

٢) قصيدة ملحمة البيضاء / صحيفة السبيل ع٨٣، قسنطينة ، ديسمبر ١٩٩٤م .

٣) سورة العنكبوت ، الآية ٢٦ .

٤) سورة الأعراف ،الآية ١٦٠ .

٥) انظر نص دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم في الطائف (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي .....) .